والجيزة

مجلة علم النفس

مجلد ١ | فبراير ١٩٤٦ | عدد ٣

المنهج التكاملى
وتصنيف الوقائع النفسية

للدكتور يوسف مراد

سكرتير عام جماعة علم النفس التكاملى

(١) التعليل العلمى والتصنيف . (٢) التصنيف واللغة . (٣) التصنيف التقليدى للظواهر النفسية . (٤) التصنيف الثلاثى فى كتب علم النفس العربية الحديثة وأوجه الاعتراض عليه . (٥) المنهج التكاملى . (٦) التصنيف التكاملى للوقائع النفسية .

١ — التعليل العلمى والتصنيف

لا يهتم العلم بالوقائع من حيث هى وقائع فحسب ، بل من حيث هى وقائع منظمة تربطها علاقات معينة ثابتة . ولا يتم التفسير العلمى لمجموعة من الوقائع إلا بإدخالها فى نظام من العلاقات أو من الشروط المتلازمة ، أو بعبارة أخرى فى نظام من المراجع . وموقف العالم شبيه بموقف المستكشف الجغرافى الذى يعين على الخريطة موضع البحيرة التى اكتشفها مبيناً أبعادها من مواقع أخرى معلومة ، وموضحاً طبيعة البحيرة وخصائصها فى ضوء معلوماته السابقة لخصائص المنطقة التى توجد فيها البحيرة .

ولا يكون العالم أبداً بصدد واقعة واحدة منعزلة ، بل بصدد شبكة من الوقائع . وليس وجود الواقعة المنعزلة سوى وجود افتراضى مجرد . وكذلك يكون الإنسان فى حياته العملية بصدد مجموعات من الظواهر والوقائع تختلف درجة تنظيمها باختلاف الأغراض التى يرمى إليها . فهناك تنظيم عملى يقتضيه التطبيق المباشر للمعلومات العملية التى يكتسبها المرء خلال تجاربه اليومية الاتفاقية . ويكون هذا التنظيم فى أبسط صوره بمثابة تصنيف للأشياء التى يستخدمها والتى تدخل فى نطاق ما يعالجه من أمور فى نواحى نشاطه المختلفة ، ويكون مبدأ التصنيف فى العادة التميز بين النافع والضار ليكون العمل سريعاً منتجاً . وتتمثل مختلف التصانيف التى ينشئها المرء لتنظيم حياته العملية فى اللغة التى يستخدمها . فكل لغة تتضمن تصنيفاً للموجودات والحوادث ، وكل تصنيف لفئة من الموجودات أو من الحوادث ينطوى على نوع من التفسير والتعليل . فالعلاقات التى تتضمنها الجمل ليست سوى تعبير عن العلاقات التى تبدو للمتكلم أنها موجودة فيما يلاحظه من وقائع أو فيما يتصوره من حوادث .

غير أن التصانيف التى تنطوى عليها التعبيرات اللغوية الجارية ، وبالتالى التفسيرات التى تتضمنها تلك التصانيف ينقصها الشمول الذى يمتاز به التصنيف العلمى القائم على مبادىء موضوعية ، بعيدة عن المقاييس الذاتية المرتبطة بوجهة النظر النفعية ، كما تنقصها أيضاً الدقة التى يرمى إليها التفسير العلمى المستند إلى قوانين قابلة لأن تصاغ صيغة كمية رياضية . والحاجة إلى التصنيف واضحة خاصة فى علوم الموجودات الحية كعلم النبات وعلم الحيوان ، لأن الكائنات الحية تمتاز بتعقد بنائها إذا قيس ببناء الأجسام الجامدة . ويكاد يكون التصنيف فى علم الكيمياء تاماً شاملا ، وهذا دليل كاف على تقدم هذا العلم أو على إمكان تقدمه بطريقة مطردة ثابتة . أما التصنيفات البيولوجية فهى ، وإن كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من الدقة والنظام ، لا تزال قابلة للتعديل نظراً للتضارب القائم بين النظريات الكبرى التى تتناول مشكلة طبيعة الحياة وطبيعة

الصلات التى تربط بين مختلف الأجناس والأنواع . ويرجع التفاوت الملاحظ بين تصنيف الأجسام الجامدة وتصنيف الأجسام الحية من حيث الدقة إلى أن خصائص الجوامد أبسط من خصائص الأحياء وأكثر ثباتاً . فالجامد لا ينمو فى حين أن الحى ينمو ، الجامد قابل للزيادة والنقصان عن طريق الجمع والطرح ، دون تفيد بقوانين بنائية ، فى حين أن الحى لا يزداد إلا عن طريق التمثيل مع الاحتفاظ بشكله وبنائه وفى حدود خاصة تعينها القوانين البنائية وإلا اختل النظام الحى وظهر المرض[1] . وما يقال عن صعوبة التصنيف فى العلوم البيولوجية يقال بالأحرى عن تصنيف الوقائع النفسية . فالحياة النفسية هى أيضاً نظام أى أنها خاضعة لقوانين بنائية توضح تركيب الذهن وبنائه ، وهى قبل كل شىء نشاط ، أى أنها خاضعة لقوانين وظيفية تعيّن مراحل النموّ والتقدّم ، مشيرةً إلى تآزر العمليات المختلفة التى تقوّم الوحدة النفسية الجسمية التى تكوّن الإنسان ، وإضافة إلى ذلك تُعين معرفة القوانين البنائية والقوانين الوظيفية على كشف المراحل التى يقطعها النشاط السيكولوجى مع تحديد صلة كل مرحلة بما يسبقها وما يتبعها من مراحل .

فالتصنيف فى علم النفس خطوة أولى نحو التفسير العلمى الصحيح . ولكن التصنيف مرهون بمدى الحقائق التى وصل إليها العلم كما أن اطراد التقدم العلمى فى الكشف عن الحقائق مرهون بدوره بقيمة التصنيف الذى يعيّن للباحث معالم المجال الذى يبحث فيه . يجب ألا ننظر إلى هذا الأمر نظر المنطقى الذى لا يتناول فى تفكيره سوى المجردات ، فيقول إن مثل هذا الموقف ينطوى على دور عقيم لا يمكن الخروج منه . الواقع أن هناك تعاون متبادل بين التصنيف وبين تقدم المعرفة . فازدياد الحقائق يؤدى إلى تحطيم الإطار القديم وبالتالى إلى توسيع الآفاق وإعادة بناء المعلومات القديمة فى ضوء الحقائق الجديدة وسيتضح لنا هذا فيما يلى عند عرضنا للمنهج التكاملى فى علم النفس تمهيداً لتوضيح التصنيف الجديد المقترح .

(١) Youssef Mourad : Structure fondamentale de l'organisme vivant. مجلة كلية الآداب — جامعة فؤاد الأول . المجلد السابع يوليو ١٩٤٤

٢ — التصنيف واللغة

يوجد تضامن وثيق بين المعرفة والعمل ، فالمعرفة تتسع باطراد العمل وتقويمه كما أن العمل يزداد إتقاناً ونفاذاً باتساع المعرفة . ويلخص الإنسان تجاربه المختلفة وما يختبره فى نفسه من حالات وما يشاهده فى الآخرين من سلوك وتصرفات فى اللغة التى يستخدمها . واللغة على اختلاف طرق تعبيرها هى الوسيلة الوحيدة للتفاهم . ولا بد من أن تتخذ اللغة نظاماً يطابق إلى حد كبير نظام العقل نفسه ، ومن المعلوم أن قواعد اللغة أو قواعد التعبير اللغوى تشبه كثيراً قواعد المنطق ، ووجه الفرق الأساسى يرجع إلى أن قواعد اللغة أكثر مرونة من قواعد المنطق ، لأنها أكثر خضوعاً لتأثيرات الحياة والنشاط العملى ، قابلة للتطور أكثر من قواعد المنطق التى تمثل نواحى العقل المجرد عن العوامل الانفعالية ، ومما هو جدير بالملاحظة أن عدد الألفاظ التى تدل على العمليات العقلية العليا التى تمتاز بدرجة كبرى من التجريد والتعميم قليلة بالقياس إلى الألفاظ التى تدل على الحالات الوجدانية المختلفة وعلى الفوارق الدقيقة الموجودة بين حالتين متقاربتين ، وهذه المعانى التى تدل على شتى الحالات الوجدانية والانفعالية مرتبطة عادة بالمعانى التى تدل على أشكال مختلفة من الحركات والأفعال ، كما أنها مرتبطة بالظروف الخارجية التى تحيط بالحالة النفسية وما يصحبها من حركات وأفعال . ويتضح هذا فى جلاء إذا تصفحنا بعض كتب اللغة التى تصنِّف الألفاظ حسب المعانى ، أو كتب الفروق اللغوية ككتاب أبى الهلال العسكرى . ولنشر على سبيل المثال إلى ماجاء فى الباب الثالث والعشرين من هذا الكتاب فى الفرق بين البشر والبشاشة و بين طلاقة الوجه ، ثم بين السرور والفرح والجذل والحبور ، ثم بين الهم والغم ، و بين الحزن والكرب والكآبة والبث ؛ و بين الغم والحسرة والأسف . و يبدو لنا أن اللغة فيما يختص بوصف الحالات النفسية ودقائقها اللطيفة قد ذهبت إلى أبعد ما يمكن أن يذهب إليه التحليل العلمى ، وهذا أمر يسهل تعليله لأن العلم يرمى إلى أحكام كلية عامة فهو مضطر بحكم أساليب بحثه ومنهجه إلى أن يعزل ويفصل حيث لا يوجد فى الواقع

عزل ولا فصل ، وأن يضم من جهة أخرى أموراً إلى غيرها مراعياً فقط أوجه الشبه الجوهرية ، مهملا الفوارق الدقيقة التى سيكون من شأن الشاعر أو الأديب إبرازها ووصفها . ولهذا يبدو علم النفس العلمى بعيداً كل البعد عن التحليلات الأدبية للحالات النفسية ؛ فلغة العلم جافة غريبة لا يستسيغها الذوق ، لأنها مجردة من الشحنة الوجدانية التى تضفيها الحياة على أساليب الشاعر والأديب ، ولكن لغة العلم تمتاز بالدقة كما أنها تمتاز بالوضوح لمن تعلمها . غير أن معظم مصطلحات علم النفس لا تزال مستمدة من اللغة العامة ، ولكن العالم يحاول تحديد دلالة الألفاظ العادية بحيث يزول اللبس ، وبحيث يصبح اللفظ رمزاً لمعنى معين أو لوظيفة معينة . ولنأخذ مثلا الألفاظ الثلاثة الآتية : شعر وأحس وأدرك فهى تعتبر فى اللغة من المترادفات والدليل على ذلك ما تعرّف به هذه الألفاظ فى قواميس اللغة : فنجد أن شعر به معناه علم أو أحسّ به ، وحسّ وأحسّ الشىء وبالشىء علمه وشعر به وأدركه ؛ وأدرك المسألة : علمها ، أدرك الشىء ببصره رآه . وتعرّف المدارك بأنها الحواس والمشاعر بأنها الحواس أيضاً .

أما إذا رجعنا إلى كتب علم النفس فإننا نرى أن كل معنى من هذه المعانى الثلاثة يمثل مسألة من مسائل علم النفس الكبرى . فيعقد فصل فى الشعور consciousness ودرجاته ، ثم فصل آخر فى الإحساس sensation ، وفصل ثالث فى الإدراك perception ، وفى الكتب الحديثة يقصد بالإدراك إدراك العالم الخارجى[1] .

ولا شك فى أن كل إدراك يستلزم إحساس وأن كل إحساس لا بد أن يكون مصحوباً بشعور ، ولهذا السبب جمعت اللغة بين المعانى الثلاثة . ومما لا شك فيه أيضاً أن العلم لا ينكر هذه الصلة القائمة بين هذه الوظائف الثلاث ، غير أنه ينظر إلى كل منها من وجهة خاصة فالشعور شرط ضرورى لكى يكون هناك حالات

(١) راجع قاموس مصطلحات علم النفس فى العدد الأول من هذه المجلة « شعور » ص١٠٤ وفى العدد الثانى « إحساس » و « إدراك » . ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

نفسية — وان لم تكن جميع الوقائع النفسية شعورية يمكن الشخص أن يختبرها مباشرة — ؛ وترمى دراسة الإحساس إلى معرفة الشروط الفسيولوجية والنفسية للتأثر شعورياً بالخصائص الحسية ، أما دراسة الإدراك فإنها مقصورة على دراسة الشروط اللازمة لإدراك موضوعات العالم الخارجى فى المكان .

وهناك حقائق نفسية أعم مما ذكرنا كان من اليسير تمييز بعضها من بعض . فلدينا أولا التفرقة بين الظاهر والباطن ، ثم التمييز بين الباطن المادى ، والباطن اللامادى ، وتتمثل التفرقة بين الظاهر الملموس والباطن غير الملموس فى التميز بين الجسد والعقل أو بين الجسم والنفس . فيقال مثلا ضُعف الجسد أو ضَعفه ، ولكن يجب أن يقال فقط ضَعف الرأى والعقل[١] . كأن هناك اشتراك بين الجسد والعقل على الرغم من تمايز الواحد عن الآخر ، وميّزت اللغة بين الحركة التى تنطلق بذاتها ولذاتها دون أن تكون موجهة والحركة التى تطلق موجهة وحاملة فى ثناياها دلالة خاصة ، فقد ميّز بين الصياح وهو رفع الصوت بما لا معنى له والنداء وهو رفع الصوت بما له معنى[٢] .

وميّزت اللغة أيضاً بين الحالة النفسية التى يختبرها الشخص و بين آثارها الحركية كالتغيير الذى يقوى ملامح الوجه فالفرق بين الحزن والكآبة مثلا أن الكآبة أثر الحزن البادى على الوجه[٣] . ومثل هذه الأمثلة كثيرة فى لغتنا ولعل اللغة العربية أكثر اللغات تحليلا لأوجه الحالات النفسية المختلفة وما يصاحبها من تعبيرات .

٣ — التصنيف التقليدى للظواهر النفسية

يرجع التصنيف التقليدى للوظائف النفسية إلى تصنيف قوى النفس أو كما نقول اليوم ملكات النفس (facultés de l'âme) . وكان يربط عادة بين القوى ومركزها فى الجسم . فيقسم أفلاطون النفس إلى ثلاثة أقسام : العقل (*nous*) ومركزه فى الدماغ

(١) أبو الهلال العسكرى ص ٩٤ (٢) نفس المرجع ص ٩٤ (٣) نفس المرجع ص ٢٢١

القوة الغضبية (*thumos*) ومركزها فى الصدر وبالأخص فى القلب ، والقوة الشهوانية (*épithumia*) ومركزها فى البطن .

وقد ذكر الغزالى نفس هذا التقسيم ، ولكن بألفاظ أخرى فذكر القوة الربانية (العقل) والقوة السبعية (الغضب) والقوة البهيمية (الشهوة)

غير أن أفلاطون لم يدرس النفس الإنسانية دراسة منظمة مستقلة ، بل ضمن دراسته للكون بأجمعه ، وليست دراسة النفس سوى فرع من علم الطبيعة ، وبين عالم المحسوسات كما يتراءى لنا وعالم المثل الذى يكشفه التذكر توجد صلة هى النفس العالمية التى هى مبدأ كل نظام وكله حركة وكل حياة وكل معرفة . ومن هذه النفس الكونية تنسلخ النفوس الفردية .

فلا نجد فى فلسفة أفلاطون علماً للنفس مميَّزاً من غيره ، مقصوراً على دراسة الظواهر الداخلية (١)

أما مؤسس علم النفس فهو أرسطو ، غير أنه اعتبره جزءاً من علم الحياة ويميل العلم الحديث إلى إدخال علم النفس من جديد فى دائرة علم الحياة .

ونجد عند أرسطو تصنيفاً منظما لملكات النفس ووظائفها . ويقوم هذا التصنيف على التمييز بين وظائف المعرفة والعلم من جهة وبين وظائف الحركة والعقل من جهة أخرى .

وظائف المعرفة وهى قسمان : حسية وتشمل الإحساس والتذكر والتخيل وتداعى المعانى . وعقلية وتشمل المعنى الكلى والحكم والاستدلال .

وظائف الفعل وهى أيضاً قسمان : حسية وتشمل الميول والانفعالات والأهواء عقلية وهى الإرادة الحرة .

ظل هذا التصنيف متبعاً فى القرون الوسطى حتى جاء ديكارت فاستبدل به تقسيما آخر قائما على دراسة أحوال النفس أو ظواهرها . فميز بين الأحوال المنفعلة

(١) هناك بعض الدراسات الفرعية كالتمييز بين الجسم والنفس وتغلب الثانيـــة على الأول ، التمييز بين قوى النفس الثلاث ، نظرية درجات المعرفة ، نظرية اللذة ، التقابل بين المعقول والمحسوس .

(modes passifs) وهى العقل و بين الأحوال الفـاعلة (modes actifs) وهى الإرادة الحرة .

و ينقسم العقل إلى قسمين : ١ — المعانى وهى إما فطرية أو حسية أو خيالية ٢ — الانفعالات وهى بمثابة معان غامضة .

أما الإرادة الحرة فتنقسم إلى قسمين أيضاً : ١ — الحكم ٢ — الأفعال .

يلاحظ فى هذا التقسيم الثنائى أن الحالات الوجدانية والانفعالية لا تكوّن فئة مستقلة بل اعتبرت جنبا من العقل (entendement) .

ولم يظهر التقسيم الثلاثى الذى يميّز بطريقة واضحة بين العمليات العقلية المؤدية إلى المعرفة و بين الحالات الوجدانية والانفعالية ، ثم بينهما و بين وظائف الحركة والفعل إلا فى القرن الثامن عشر تحت تأثير جان جاك روسو (Rousseau) فى الأدب وكنت (Kant) فى الفلسفة . ولا يزال هذا التقسيم الثلاثى فى بعض الكتب المدرسية بمثابة الإطار العام لترتيب الموضوعات والفصول . فتبعاً لهذا التقسيم تشمل الحياة النفسية أولاً الحياة العقلية (vie intellectuelle) ثانياً الحيـاة الوجدانية[1] (vie affective) وثالثاً النشاط الحركى والفعل[2] (vie active) و يتمثل هذا التقسيم

---

(١) يستعمل أحياناً لفظ sensibilité باللغة الفرنسية للاشارة إلى حالات اللذة والألم ، أما دراسة الاحساسات sensations فانها تدخل فى دائرة الحيـاة العقلية . راجع مثلا كتاب هانكان Hannequin مدخـل إلى علم النفس المنشور عام ١٨٩٠ Introduction à la psychologie فيقسم هانكان الوقائع النفسية إلى ثلاث فئات : الوقائع الوجدانية أو «الحسية» faits affectifs ou sensibles · الوقائع «المعرفية» أو العقلية faits cognitifs ou intellectuels والوقائع الارادية faits volitionnels ou volontaires .

يلاحظ هنا عدم التمييز بين المعنى العام والمعنى العلمى للفظ sensibles حسى ، حساس ، كما يلاحظ أن الوقائع الإرادية لا تستغرق جميع أنواع الأفعال الحركية .

(٢) يستعمل أحيانا فى تسمية الجانب الثالث من الحياة النفسية وهو جانب الحركة والفعل كلمة vie conative, conation عبر أن لفظ conation الذى يفيد معنى الجهد (*conatus*- effort) أضيق دلالة من لفظ « فعل » action فهو يفيد الفعل الذى يواجه مقاومة ، فى حين أن الفعل قد يكون تلقائياً أو مصحوبا بجهـد Conation semble désigner l'*action* en tant qu'elle a à triompher d'une résistance ou réaction pour se poser elle-même progressivement et *in fieri*. M. Blondel *in* Vocabulaire de Philosophie de A. Lalande. T.I p. 117.

الثلاثى فى العنوان الذى أطلقه العالم الأمريكى سكريبتشر E.W. Scripture على كتاب فى علم النفس أصدره عام ١٨٩٥ : Thinking, feeling, doing أى التفكير والوجدان والفعل .

٤ — التصنيف الثلاثى فى كتب علم النفس العربية الحديثة وأوجه الاعتراض عليه

لا شك فى أن لهذا التصنيف الثلاثى مزايا عملية لتبسيط دراسة الحياة النفسية ، غير أنه تبسيط مخل بالواقع ؛ لأن مثل هذا التصنيف جامد يغفل ديناميكية الحياة النفسية ويجردها من أخص مزاياها وهى تواصل مراحلها فى الزمان والترابط الوظيفى الذى يربط بين الوقائع الوجدانية والتصورية والعقلية . فلا توجد حالة نفسية تكون وجدانية أو تصورية أو فعلية فحسب . فلكل حالة نفسية ، مهما كانت مقصورة على الناحية التصورية، بطانة وجدانية تأثرية ، فضلاً عن أن كل فكرة تميل إلى أن تتحقق فى الخارج فى صورة حركية .

وقد عدل كثير من مؤلفى كتب علم النفس المدرسية عن ذكر هذا التقسيم وعن اتخاذه إطاراً لتنظيم الوقائع النفسية . وهم يؤثرون المنهج التكوينى الذى يتتبع مراحل النمو منذ الطفولة حتى اكتمال الحياة النفسية ، ثم دراسة تفككها وانحلالها بتأثير المرض والشيخوخة . وأحسن مثال لهذا التصنيف كتاب فلورنس جودينف[١] .

غير أن كتب علم النفس المدرسية المنشورة باللغة العربية لا تزال متمسكة بهذا التصنيف الثلاثى على الرغم من جموده ومن الاعتراضات التى وجهت إليه.[٢] ضف إلى ذلك أنه يبدو أن المعرب الأول الذى أخذ عنه الآخرون لم يوفق فى نقل

---

(١) F.L. Goodenough : Developmental Psychology 2d. ed. 1945 D. Appleon-Century Co, New York.

(٢) راجع بهذا الصدد كتب علم النفس الفرنسية للابير Malapert وورى Rey وكوفيلبير Cuvillier .

المصطلحات الأجنبية إلى اللغة العربية . فيقال لنا أن الظواهر النفسية تنقسم إلى إدراك ووجدان ونزوع[١] ويقصد بالإدراك العمليات المؤدية إلى التصور والمعرفة وبالنزوع الظواهر التى تمتاز بالنشاط والحركة .

ويمكن الاعتراض على هذا التصنيف بالوجه الآتى :

— من المعلوم أن الشرط الأساسى لكل تصنيف صحيح واف أن تكون عناصره مميزة بعضها عن بعض تمام التمييز . وهذا التمييز محقق بين الإدراك والوجدان من جهة وبين الإدراك والنزوع من جهة أخرى ولكنه معدوم إلى حد كبير بين الوجدان والنزوع . وربما يرجع هذا اللبس إلى غموض معنى الوجدان ومعنى النزوع. فللوجدان معنيان على الأقل ، الأول هو النفس وقواها الباطنة وبهذا المعنى تكون الوجدانيات مايجده كل أحد فى نفسه من حالات شعورية أو ما يدركه مباشرة بالقوى الباطنة أو بالحواس الباطنة (données immédiates de la conscience) أما الثانى فهو الشعور بالألم واللذة والحزن والفرح والشوق الخ أى الشعور بالوَجد ومعناه فى كتب اللغة الحزن أو الفرح أو الخوف أو الوله أو العشق أو الدلع وبهذا المعنى ينطبق الوجدان على ما يسمى بالفرنسية affectivité وبالأخص على الميول والانفعالات والأهواء . ويطابق هذا المعنى أيضاً ما اصطلح عليه الصوفية وبالأخص ابن عربى إذ عرّف الوجد : ما يصادف القلب من الأحوال المضنية له من شهوده .

أما النزع فمعناه فى اللغة الميل والرغبة والشوق وأيضاً التشبه والمحاكاة . فإذا اعتبرنا هذا المعنى اللغوى المباشر يتضح لنا أن النزوع يدخل فى دائرة الحالات الوجدانية وكلنا نعلم مدى الصلة الموجودة بين اللذة والألم وبين الميول والنزعات .

وللنزوع معنى فلسفى يمكن استخلاصه مما كتبه ابن سينا فى هذا الصدد[٢] . نلاحظ بادىء ذى بدء أن ابن سينا يجمع بين النزوع والشوق ولا يميز بينهما إذ

(١) هذا التقسيم ينطبق على تحليل مراحل الفعل الغريزى كما وضحها مكدوجل McDougall ولكنه لا ينطبق على جميع الظواهر فكلمة peception إدراك لا تفيد إلا جانبا من عملية المعرفة cognition .

(٢) راجع كتاب النجاة ص ٢٥٩ .

يقول : القوة النزوعية والشوقية هى القوة المحركة على أنها باعثة . والقوة النزوعية والشوقية هى القوة التى إذا ارتسم فى التخيل صورة مطلوبة أو مهروب عنها حملت القوة التى نذكرها على التحريك ولها شعبتان ، شعبة تسمى قوة شهوانية وهى قوة تبعث على تحريك يقرب به من الأشياء المتخيلة ضرورية أو نافعة طلباً للذة . وشعبة تسمى قوة غضبية وهى قوة تبعث على تحريك يدفع به الشىء المتخيل ضارا أو مفسداً طلباً للغلبة .

فيما سبق يعتبر ابن سينا القوة المحركة من حيث هى باعثة ، وهناك اعتبار آخر من حيث هى فاعلة . والقوة المحركة الفاعلة هى قوة تنبعث فى الأعصاب والعضلات من شأنها أن تشنج العضلات فتجذب الأوتار والرباطات إلى جهة المبدأ أو ترخيها وتمدها طولا فتصير الأوتار والرباطات إلى خلاف جهة المبدأ .

ويقول أيضاً فى عيون الحكمة (ص ٢٩) : القوة المتحركة هى مبدأ انتقال الأعضاء بتوسط العصب والعضل والإرادة . والمقصود من القوة المحركة فى هذا النص الأخير القوة المحركة على أنها فاعلة .

يتضح لنا ، فى ضوء النصوص السابقة ، أن النزوع أقرب إلى الوجدان منه إلى الحركة من حيث هى فعل وتنفيذ ، وإذا أردنا أن نقسم الظواهر النفسية إلى وجوه ثلاثة ، بحيث يكون كل وجه جامع ومانع فى آن واحد كما يقول المناطقة ، فلتكن القسمة كالآتى : علم (لا إدراك فقط) ، وجدان بما فيه النزوع والشوق وأخيراً نشاط وفعل . ولكن على الرغم من ذلك فإنه لا يزال ناقصاً بعيداً عن الواقع ؛ فالعمليات العقلية المؤدية إلى المعرفة والعلم هى نشاط كما أن لا بدّ من بواعث سواء للتفكير أو العمل ، كما أنه أيضاً لا يمكن أن توجد حالة وجدانية دون أن تكون مصاحبة بحكم عليها كأن نحكم ولو حكماً ضمنياً أن هذا الألم شديد وذاك ضعيف الخ .. وكذلك يمكن القول أن النزوع — أى الباعث على حد تعبير ابن سينا — لا يكفى لاستكمال الحركة ، خاصة إذا راعينا الحياة النفسية فى الإنسان وما يجب أن نفهم عليه الإرادة الإنسانية التى لا تتم إلا بتوسط الفكر والعقل . فالنزوع لا يعبّر إلا

عن الإرادة الحيوانية ، إرادة جذب النافع طلباً للذة ودفع الضار والمؤذى طلباً للغلبة[١] .

وفى إمكاننا أن نعود إلى نصوص ابن سينا لنلتمس تقسيماً أوفى وأدق من التقسيم الشائع . فابن سينا يميز بين النفس الحيوانية المشتركة بين الحيوان والإنسان و بين النفس الناطقة الخاصة بالإنسان . فيقول إن للنفس الحيوانية قوتين مدركة ومحركة وللنفس الناطقة أيضاً قوتين عالمة وعاملة . والمدركة فى الحيوان تناسبها العالمة فى الإنسان والمحركة فى الحيوان تناسبها العاملة فى الإنسان فيكون لدينا قسمان رئيسيان : إدراك وعلم من جهة وحركة وعمل من جهة أخرى ، و ينطوى القسم الثانى على الناحية الوجدانية إذ أن القوة المحركة من حيث هى باعثة تؤدى تبعاً لابن سينا إلى النزوع والشوق والشهوة والغضب .

٥ — المنهج التكاملى

يرجع نقص التصنيف التقليدى إلى نقص المنهج الذى اتبع فى الكشف عن الحالات النفسية وتحليل مظاهرها . وهذا المنهج هو الاستبطان الذى لا يدرك إلا ما يبدو للشعور فى لحظة ما دون الوصول إلى ما وراء الحالات الشعورية من عوامل وشروط ترجع إلى تركيب الطبيعة الإنسانية و إلى خبرات الماضى التى تمتد آثارها إلى الحاضر .

فنتائج الاستبطان محدودة للغاية ، صناعيـة وتجريدية ، تغلب عليها الصبغة الاستاتيكية الجامدة . فقد يذهب الاستبطان إلى تجاوز الحدود التى تحتمها طبيعة الموضوع لعملية التحليل لكى لا تشوه هذا الموضوع برده إلى عناصر مجردة افتراضية و إلى حالات بسيطة مفككـة . فلابد إذن من البحث عن منهج يلائم طبيعة الحياة

(١) هذا الاتجاه واضح فى بعض الكتب العربية الحديثة المتداولة ، فلا يخرج القارىء لفصل الإرادة إلا بفكرة عن الارادة فى مظهرها الحيوانى فحسب ، على الرغم مما يذكر — بعد تعريف الارادة بمحض الشهوة أو الميل — من العمليات الفكرية المصاحبة للفعل الارادى . فالكلام عن الارادة مجرد ذكر أجزاء لا يربط بينها مبدأ واحد واضح .

النفسية ويراعى تعقدها وتواصل مراحلها واتجاه تطورها ، مع الإشارة دائماً إلى هذه الحركة الحية التى تربط بين مختلف المراحل التى تؤدى بالفردية البيولوجية إلى الشخصية الفاعلة المتكاملة . وهذا المنهج هو المنهج التكاملى الذى يتخذ من الشخصية المحور المركزى لجميع الدراسات السيكولوجية .

وليس معنى التكامل بالمعنى الجديد فى علوم الأحياء ، فإنه يمكن تتبع فكرة التكامل منذ أرسطو حتى عصرنا هذا فى مصنفات الفلاسفة والعلماء الذين نظروا إلى الإنسان كوحدة نفسية جسمية لا تتجزأ . وقد ساهم علماء الفسيولوجيا وخاصة علماء وتكوين الأجنة فى توضيح عملية التكامل فى الكائن الحى ونخص منهم بالذكر شرنجتون وڤون مونا كوف ودريتش وكوجيل وسبيمان وجولدشتين [١]

كما أنا نجد الروح التكاملية توجه بعض المدارس السيكولوجية التى تركز دراساتها حول الشخصية ، رافضة الأخذ بالتفسير الميكانيكى كما تصنع مثلا المدرسة السلوكية البحتة ، ومراعية ما تمتاز به الحياة النفسية من نشاط ذاتى وغائية . ونلمس هذه الروح التكاملية فى بحوث أدولف ماير A. Meyer وتلامذته وفى المدرسة السيكوسوماتية فى الطب (psychosomatic medicine)

وقد وصلنا إلى استخلاص معالم المنهج التكاملى فى أثناء دراستنا المقارنة للسلوك الحيوانى وسلوك الطفل فى السنتين الأولى والثانية من عمره وقد نشرنا هذا البحث عام ١٩٣٩ بعنوان بزوغ الذكاء [٢] ثم عملنا على توضيح هذا المنهج فى أثناء تدريس

(١) C. S. Sherrington : The integrative action of the nervous system. 1906. 6th. ed. 1920.

C. v. Monakow & R. Mourgue : Introduction biologique à l'étude de la neurologie et de la psychopathologie. 1928.

Hans Driesch : The science and philosophy of the organism. 1908.

G. E. Coghill : Anatomy and the problem of behavior 1929.

Hans Spemann : Embryonic development and induction 1938.

K. Goldstein : Der Aufbau des Organismus 1934.

(٢) Y. Mourad : L'éveil de l'intelligence. Etude de psychologie génétique et comparée. Pp. XV—406 Alcan, Paris 1934.

علم النفس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول منذ عام ١٩٤٠ . وقد وصلنا نهائياً إلى التصنيف الذى سنعرضه بإيجاز فى الفقرة السادسة فى خلال عام ١٩٤٢ ولم تتح لنا فرصة نشره قبل اليوم (١)

وقبل ذكر التصنيف التكاملى للوظائف والوقائع النفسية ، يجدر بنا أن نعرض بشىء من التفصيل لأهم قضايا المنهج التكاملى نفسه ، مبينين كيف أن طبيعة الحياة النفسية تتطلب ، لكى تفهم فهماً شاملا ، مثل هذا المنهج دون سواه .

* * *

تختلف العلوم باختلاف موضوعاتها ، فمنها البسيطة ومنها المعقدة تبعاً لطبيعة الموضوع ، وبما أن كل علم هو معرفة منظمة لموضوع معين بواسطة مبادىء وقوانين تفسيرية ، فلا بد فى كل علم خاص من انتهاج منهج خاص يلائم موضوع العلم ويؤدى تطبيقه إلى كشف أكبر عدد ممكن من الحقائق وتنظيم هذه الحقائق فى صورة قوانين عامة شاملة . وكلما ازدادت القوانين شمولا وتفسيراً لعدد كبير من الحقائق قل عددها وازداد العلم تنظيما ووضوحاً . فالعلوم الرياضية والفلكية مثلا أقل تعقداً من العلوم الطبيعية التجريبية ، فالمنهج فى العلوم الرياضية قياسى عقلى لا يعتمد على التجربة إلا عرضاً ، فى حين أن التجربة والاستقراء يقومان بالدور الأول فى العلوم الطبيعية . غير أن المجرب لا بد له من اصطناع القياس والاستنتاج الرياضى بجانب ما يقوم به من عمليات التجريب .

وإذا انتقلنا إلى علم الأحياء شعرنا بضرورة توسيع المنهج التجريبى لمراعاة الخصائص الجديدة التى تمتاز بها الكائنات الحية كظاهرة الوظيفة البيولوجية وما تتصف به العمليات الفسيولوجية من اتجاه معين وغائية (٢) وبالانتقال إلى علم النفس

(١) اطلعنا بعد الانتهاء من وضع منهجنا ووضع كتاب علم النفس القائم عليه — وسيعد للطبع قريباً — على كتاب مارستون Marston « علم النفس التكاملى » Integrative psychology المنشور عام ١٩٣١ . ولا يختلف هذا الكتاب عن بقية الكتب فى طريقة تصنيف موضوعاته إذ لا ينتهج مبدأ واضحا للتصنيف والتعليل .

(٢) راجع كتاب « مدخل إلى دراسة الطب التجريبى » تأليف كلود برنار وترجمه يوسف مراد وعبدالله سلطان . المطبعة الأميرية ١٩٤٤ .

وعلم الاجتماع نشاهد ازدياد تعقد موضوعات هذين العلمين لتدخل العناصر النفسية والعقلية كما هى ممثلة فى الإنسان ، وتفاعلها فى الجماعات . وفى مثل هذه العلوم الإنسانية يصبح المنهج التجريبى كما هو مطبق فى العلوم الطبيعية ناقصاً والقوانين الطبيعية عاجزة عن تفسير الظواهر الإنسانية و بيان ما تمتاز به من صفات جديدة . فكما أنه من الخطأ تشبيه الجسم الحى بالآلة الخاضعة لقوانين ميكانيكية بحتة ، يكون كذلك من الخطأ تشبيه النفس الإنسانية أو الجماعة بالجسم الحى دون مراعاة ما تمتازان به من فوارق جوهرية .

ولكن كما أن العلوم المعقدة تستند إلى ما هو أبسط منها ، فلا شك أن هناك أوجه شبه بين نمو الكائن الحى ونمو النفس الإنسانية أو الجماعة . فيجب الاستفادة بما وصلت إليه علوم الأحياء من حقائق وقوانين للاستعانة بها على سبيل المماثلة لكشف القوانين الخاصة بالوقائع النفسية والاجتماعية . وهناك خاصية مشتركة بين الكائن الحى والنفس الإنسانية والجماعات وهى الناحية التكوينية التطورية ، أى أنه لابد من اعتبار المراحل التى يمر بها النمو والترقى من نقطة البدء حتى الاكتمال ثم الزوال . أو بعبارة أخرى يؤدى الزمن دوراً هاماً فى تفسيرنا لظواهر الكائنات الحية والظواهر الإنسانية . فالحاضر لا يفهم تماماً إلا فى ضوء الماضى كما أن معرفة الحاضر تعيننا على التنبؤ بالمستقبل إلى حد كبير .

و إذا اتخذنا الحياة بأوسع معانيها بحيث تشمل الحياة النفسية والحياة الاجتماعية قلنا إن الحياة حركة ولكنها موجهة ترمى إلى غاية معينة ، تقوم كل خطوة جديدة على الخطوات السابقة ولكنها مبدية فى كل خطوة جديدة مظاهر وخصائص جديدة على الرغم من قيامها على الماضى .

و بما أن ميزة الحياة هى الحركة والتطور فلا بد أن يكون المنهج ديناميكيا تطورياً لكى يراعى الصلة القائمة بين الماضى والحاضر والمستقبل . ولكن ما هى طبيعة هذه الحركة ؟ هل هى حركة مطردة تسير دائماً إلى الأمام وفى خط مستقيم كالحركة الميكانيكية ؟ أم هى حركة دائرية تعود بالمتحرك إلى نقطة البدء ؟ حركة

الحياة ليست هذه ولا تلك ، فالأولى عمياء فى حين أن حركة الحياة موجهة تقف عند غاية ، والثانية تفيد فى نهاية الأمر الجمود والثبات فى حين أن الحياة تجديد وتطور .

ولا يمكن كشف طبيعة هذه الحركة ومن ثم توضيح المنهج الملائم لدراستها وفهمها بطريقة شاملة إلا بدراسة نظام من الأنظمة الحية كالشخصية أو تكوين مجتمع مثلاً . ولكن هناك اعتراض لا بد من الإشارة إليه والرد عليه قبل مواصلة الحديث فى طبيعة الحركة المميّز للحياة . كيف يمكن معرفة طبيعة هذه الحركة قبل تحديد المنهج الملائم لدراستها وكيف يمكن تحديد المنهج الملائم بدون معرفه سابقة لطبيعة الموضوع ؟ . فهنا دور بدون شك لا يمكن الخروج منه . والواقع أن الدور لا يبدو إلا للنظرة السطحية وقليل من التفكير فى طبيعة البحث العلمى كفيل بإزالته.

لنأخذ مثلا دراسة الشخصية . فإن علم النفس لم يصل إلى ما يعرفه اليوم عن نشوئها وترقيها كما يبنى الحائط بوضع صف من الحجر فوق الآخر ؛ لم يصل إلى معرفة الشخصية بطريقة تدريجية ، بل بطريقة تقريبية . ففى العهد الأول من دراسة الشخصية كان علماء النفس يصطنعون منهج العلوم الطبيعية ، فكانوا يحللون الشخصية إلى عناصرها ، ثم يركبونها من جديد بضمّ العناصر بعضها إلى بعض كما يصنع عامل الفسيفساء . فكان ينظر إلى الشخصية كأنها مجموعة من السمات دون كشف تنظيم هذه السمات والإشارة إلى عوامل التنظيم التى هى غير هذه السمات المنظمة .

ثم عند ما أريد تطبيق هذه النظرة فى حالات فردية واقعية اتضح نقصها فاضطر العلماء إلى إعادة النظر فى صلاحية المنهج المتبع ومحاولة تعديله فى ضوء البحوث المختلفة التى كثيرا ما كانت متناقضة . فالمنهج فى الواقع هو كالآلة التى تكون فى بادىء الأمر غليظة غير دقيقة ، ثم يجد الصانع الذى يستعملها فرصاً لتحسينها وصقلها كلما واصل عمله . فالآلة تؤدى إلى نتيجة ما ، ثم تساعد هذه النتيجة على تحسين الآلة وهكذا حتى الوصول إلى الكمال . فإذا كان لدينا مثلا ثلاث نظريات

رئيسية فى الشخصية تعاقبت فى بحر نصف قرن ، فإن كل نظرية ترمى إلى تفسير مظاهر الشخصية بأكملها ، ولكن النظرية الثانية التى تحل محل الأولى ليست مجرد إضافة إلى النظرية الأولى والثالثة إلى الثانية وهكذا . بل كل نظرية جديدة تكون تعديلا للنظرية السابقة . هذا التعديل هو بمثابة إعادة نظام النظرية الأولى فى ضوء البحوث الجديدة مع الاحتفاظ بالحقائق الجزئية التى تتفق معها ونبذ ما هو مخالف . وهكذا تقرب كل نظرية جديدة من الحقيقة دون الادعاء أنها ألمت بها تماماً .

فمن الخطأ اليوم أن نتصور الشخصية كمجموعة عناصر أضيفت بعضها إلى بعض كما أنها ليست تأليفاً بين عناصر ، بل هى بمثابة نظام كلى يبدأ كنظام ، غير أن التمايز الذى يحدث داخل هذا النظام الكلى يتجه فى نموه من الغموض إلى الوضوح ، من اللاتعيّن إلى التعيّن . فالشكل الأصلى يزداد تفصيلا ، ولكن التفاصيل والأجزاء التى تزداد تمايزاً بعضها عن بعض تحدث وتنتظم طبقاً لقانون الشكل الأصلى . والاتجاهات التى تشاهد داخل هذا النظام تكون مزدوجة ومتقابلة وفى نفس الوقت متعاقبة : فغموض ثم وضوح ، ثم غموض من جديد يعقبه وضوح أكبر ، أو اتجاه نحو العالمَ النفسى الداخلى ثم اتجاه نحو العالمَ الواقعى الخارجى ، ثم عودة إلى الداخل قبل مواجهة الخارج من جديد بأسلوب يزيد الأول ثراء وقوة وانسجاماً ، أو حالة خضوع تعقبها حالة عصيان ممهدة لحالة خضوع جديدة يكون فيها الشخص أكثر اقتناعاً وأعمق تبصراً .

والتيارات المختلفة التى يكشفها التحليل داخل نظام الشخصية فى أثناء نموها وترقيها تظهر فى أوقات معينة فتنظم بطرق شتى : تآزر من جهة ومقاومة من جهة أخرى ، ثم خضوع البعض للبعض الآخر ، أو كما فى حالات الانحراف والاختلال والأمراض النفسية انفصال أو توقف أو زوال أو تضخم أو نقص فى بعض التيارات دون غيرها . ومن بين هذه التيارات ما يرجع إلى العوامل البيولوجية كالجهاز العصبى وإفرازات الغدد الصماء ، أو إلى العوامل النفسية كالانفعالات والعواطف والعمليات الإدراكية والعقلية المختلفة ، أو إلى العوامل الاجتماعية من بيئة ،

وما يصدر عنها من إيحاءات وآثار ، فتتفاعل هذه العوامل بعضها مع بعض بدرجات متفاوتة تبعاً لطبيعة كل عامل وتغير ظروفه ، وهذه العمليات المختلفة من تآزر وخضوع واندماج مقاومة تؤدى عندما تسير سيرها السوى إلى حالة انسجام واتزان تعرف بحالة التكامُل .

فإذا أردنا أن نصف هذه الحركة التى تتقدم وترتقى خلال فترات من التراجع والكمون مع الازدياد فى التعقد والثراء وسمناها بالحركة الدائرية اللولبية التى تفيد فى نفس الآن عمليتى التقدم والتراجع النسبى الممهد لتقدم جديد . ونلمس هنا حقيقة هامة فيما يختص بجوهر الوجود بوجه عام . فالوجود المتزمن بزمان هو فى جوهره صراع وتوفيق فى آن واحد ، وهذه الفكرة متمثلة بدرجات متفاوتة من الوضوح فى الأساطير والأديان والفلسفات المختلفة . فيمكن القول إن كل وجود لا يتم إلا بفضل عامل من العوامل وعلى الرغم منه ، فحياة بفضل الموت وعلى الرغم منه ، جديد بفضل القديم وعلى الرغم منه ، توحيد بفضل الكثرة وعلى الرغم منها ، ذاتية بفضل التغير وعلى الرغم منه ، سعادة بفضل الشقاء وعلى الرغم منه ، حرية بفضل العبودية وعلى الرغم منها . هذا هو لب الوجود وسر التقدم الحقيقى . تتبع فالمنهج التكاملى هو الذى يسترشد فى بحوثه بهذه الحركة الدائرية اللولبية ، فيحاول جميع التيارات التى تساهم فى تكوين ظاهرة من الظواهر الإنسانية سواء كانت نفسية أو تاريخية أو اجتماعية أو خلقية أو فلسفيه ، مع كشف تنظيم هذه التيارات وصلتها بعضها ببعض . ففى دراسته للشخصية مثلا يرمى إلى الربط بين الماضى والحاضر مع مراعاة مصير الشخصية المحتمل إذ أن الشخصية تخضع فى نموها وترقيها لقوانين ديناميكية توجيهية .

•

ويرمى المنهج التكامل إلى إعادة تنظيم المنهجين الرئيسين المستخدمين اليوم فى علم النفس لتفسير سلوك الإنسان ، ولكن على أساس أوسع وفى ضوء هذه الوظيفة الهامة التى أشرنا إليها باسم الوظيفة الدائرية اللولبية والتى هى بمثابة العمود الفقرى

للمنهج ؛ وهذان المنهجان يعتمدان الأول على التفسير التاريخى أو التكوينى والثانى على ما يمكن تسميته بالتفسير الشبكى .

فالتفسير التاريخى أو التكوينى يحاول الربط بين الحاضر والماضى ، أى بين السلوك كما هو مشاهد الآن و بين الدوافع والميول وكل ما اكتسبه الفرد فى تجاربه السابقة ، سواء كانت هذه التجارب من رغبات وذكريات مشعوراً بها أو لا ، ماثلة فى الشعور أو منسية .

أما التفسير الشبكى فإنه يتناول الحالة الراهنة أو المظهر السلوكى الراهن كتجربة نفسية من حيث هى تجربة شعورية يصفها الشخص ، ذاكراً بقدر الإمكان كل الخصائص والصفات التى تجعل من هذه التجربة أمراً فردياً وفريداً فى نفس الوقت ، هو صورة وافية لحياة الشخص كما يعيشها و يعانيها فى اللحظة التى يتأمل فيها .

لا شك فى أن الاعتماد على تفسير دون الآخر عاجز عن أن يجعلنا ندرك حقيقة الحالة التى ندرسها . فالتفسير التاريخى يحاول التعليل بربط المعلولات بعللها ولكنه تفسير ناقص لأن العلم فى الواقع عاجز عن أن يقدم تعليلا وافياً لعدم إمكان حصر جميع الحلقات التى تكوّن سلسلة العلل والمعلولات .

ثم إذا اقتصرنا على هذا التفسير التاريخى ألفينا أنفسنا أمام تفسير يجرد الحياة النفسية من كل حرية و يخرج من دائرة علم النفس عاملا أساسياً من عوامل تكوين الخلق وهو الإرادة . فهو تفسير يفرض حتمية تسلسل العلل والمعلولات كما يظهره لنا التحليل العلمى .

والتفسير الشبكى بدوره ناقص لأن مضمون الشعور كما هو الآن وكما أصفه تبعاً لشعورى به هو فى الواقع جزء من حياتى النفسية و إن كان لهذا الجزء أهمية كبرى لأنه يعبر عن الشخصية كما هى فى صميمها من حيث اتجاهاتها وأساليبها . غير أن ميزة التفسير الشبكى هى أنه يعتبر من بين العوامل التى يكشفها تأمل الشخص لنفسه أو شعور الشخص بنفسه عامل الحرية والإرادة ، سواء فى صورة سلبية أو إيجابية كأن يشعر الشخص بأنه مسيَّر ومجبور أو حر مسيِّر لنفسه إلى حد ما ،

سواء كان هذا الشعور بالحرية وبالإرادة الذاتية مجرد وهم كما يزعم مذهب حتمية الظواهر النفسية أو حقيقة . فهذا الشعور بالحرية هو أمر واقعى من حيث هو مشعور به وهو عامل من أهم العوامل التى تساهم فى تكوين الخلق وتوجيه الشخصية .

فالتفسيران التاريخى والشبكى متممان بعضهما الآخر ولكن المشكلة فى التوفيق بينهما . هل يكون التوفيق عن طريق إضافة نتائج التفسير الأول إلى الثانى دون الربط بينهما ربطاً حياً ، أى دون مزجهما أو بعبارة أصح تنظيمهما داخل تفسير أوسع وأعمق وأشمل ؟

يتحقق التوفيق بين المنهجين بفضل المنهج التكاملى الذى يضم الإثنين مع كونه أكثر من الاثنين مجتمعين . فإنهما يتكاملان داخل المنهج التكاملى ولكن ما هو عامل التكامل ؟

للرد على هذا السؤال الهام نجمل ما قلناه عن التفسيرين التاريخى والشبكى :

التاريخى يربط بين الحاضر والماضى ، والشبكى يتناول الحاضر ؛ ولكنا نعلم أن لكل كائن حى نموذجاً يتطور لكى ينتهى عند حالة معينة هى حالة البلوغ والاكتمال الجسمى فى الكائنات الحية عامة، كأن ما سيصير عليه الكائن الحى يعيّن المراحل التى سيمر بها لكى يصل إلى غايته البيولوجية . وكذلك للشخصية مصير أو نموذج قابل للتحقيق فى المستقبل أو غاية ترمى إليها ، غير أن هذه الغاية أصعب تحديداً من الغاية البيولوجية التى سيحققها كل كائن حى فى دائرة فروعه . هناك إذن فكرة موجِّهة كما يقول كلود برنار يعيننا كشفها على فهم طبيعة الحياة ، وبالأولى طبيعة النفس التى هى أقرب إلى عالم الفكر منه إلى الحياة فى أعم مظاهرها من نمو وتكاثر . وتكون إذن معرفة المصير كما يوصلنا إليها العلم والفلسفة مما يعيننا على فهم طبيعة كل فرد من الأفراد وفهم مراحل نموه وترقيه المتعاقبة المتجهة نحو غاية أو هدف . فالمنهج التكاملى هو الذى يراعى فى محاولة تفسيره السلوك الإنسانى ماضى الشخص وحاضره وكذلك ما يحتمل أن يؤول إليه فى المستقبل . وهذا الاحتمال كبير جداً إذ أنه مستند إلى دراسة سابقة للطبيعة الإنسانية وكلما تقدمت هذه الدراسة زاد هذا الاحتمال قرباً من اليقين .

وفى دراسته للمراحل المتعاقبة ، لا يعتبر المنهج التكاملى كل مرحلة أساساً للمرحلة التالية فحسب ، بل رمزاً لها .

ومن الوظائف الأساسية التى يعتبرها المنهج التكاملى أكثر عمومية من غيرها وأشمل تفسيراً الوظيفة الدائرية اللولبية التى سبق ذكرها . والمقصود من هذه التسمية أن الرقى لا يسير طبقاً لخط مستقيم مطرد . كما أن النمو ليس تقدماً إلى الأمام ثم نكوص إلى الوراء بحيث يعود الأمر إلى نقطة البدء . بل النمو أكثر تعقداً من التصوير البسيط الأول الذى يمثله بخط مستقيم كما أنه شىء آخر غير وجود عابر بين عدمين : العدم السابق للوجود والعدم اللاحق له . الواقع أن فى كل نمو نكوص إلى حد ما ، ولكنه ليس بالنكوص الكامل الذى يعود إلى نقطة البدء ، هو بتعبير آخر رجوع قليل إلى الوراء استعداداً للوثبة القادمة . النمو هو إضافة الجديد إلى القديم ، لا إضافة عدديه أو حسابيه بل إعادة تنظيم القديم تحت تأثير الجديد وبتمثيل هذا الجديد وطبعه بطابع النظام الكلى الذى يسعى لتحقيق غايته ونموذجه السامى، فرجوع إلى الوراء قليلاً ثم وثبة إلى الأمام تحمل الكائن النامى إلى أبعد مما وصل إليه فى المرحلة السابقة، وهكذا تتعاقب الطفرات حتى تحقيق التكامل النموذجى. فالنمو حركة دائرية ولكنها لولبية إذ أن النمو تقدماً وتجديداً وفيه ترقٍ وصعود . وفى ضوء هذه الحركة الدائرية اللولبية ندرك تماماً معنى الانسجام الذى عبرنا عنه بأنه فى نفس الوقت تآزر وائتمار أى تعاون وخضوع .

ويمكن القول بأن النمو ، بحكم كونه موجَّهاً ، لا يتم إلا عن طريق التكوين المزدوج المتبادل ، أى أن المرحلة الجديدة تعيِّن بشكل ما المرحلة القديمة ، كما أن المرحلة القديمة تعيِّن بدورها ما يلحقها من مراحل .

ومما هو جدير بالملاحظة هو عمومية هذه الوظيفة الدائرية اللولبية وشمول تفسيرها إذ توضح لنا دراساتنا فى ميدان علم الأحياء وعلم النفس وعلم الاجتماع وفى ضوئها يمكننا تحديد ما نسميه بالمدنية أو الحضارة .

وهناك ملحوظة أخرى لا بد من إثباتها هنا وهى أن الحركة الدائرية اللولبية التى

نشاهدها فى نمو الأفراد والجماعات سواء كان هذا النمو مادياً اقتصادياً أم ثقافياً روحياً لا تكون مطردة لاتقف عند حد . وهذا واضح فيما يختص بالنمو البيولوجى ولكن هذه القضية الهامة فى نظرنا تنطبق أيضاً على النمو السيكلوجى والترقى الاجتماعى والثقافى . فهناك قانون آخر مغروز فى صلب الطبيعة الحية هو قانون الاعتدال أو قانون التوازن بين طرفين . وقد عبرنا عن هذا القانون ضمناً عند ما تحدثنا عن الصورة أو النموذج أو الغاية . فكل تجاوز لحدود الصورة أو الغاية ينقلب فوراً إلى نقص ، بل إلى اضطراب واختلال ، إلى مرض وموت . ولا يوجد فى الطبيعة سوى مظهر واحد لا يخضع لقانون النمو كما وصفنا وهو الحركة الميكانيكية العمياء التى تسير دائماً مماثلة لنفسها طالما يظل المحرك مماثلاً لنفسه من حيث قوة الدفع . وأقوى شاهد على ما نقول ، إذا نظرنا إلى حضارتنا الحاضرة ، هو وجود التعاسة والخوف والمرض والدمار جنباً إلى جنب مع تغلب النزعة الميكانيكية التى لا تعرف الهوادة ولا الراحة .

وفى دراسة هذا التطور الموجّه الذى يسير نحو تحقيق الصورة المثلى لكل كائن حى أو لكل نظام شبيه بالكائن الحى ، فرداً كان أو جماعة ، لا بد من مراعاة جميع المقومات ، كل فى مرتبته الخاصة وبالقياس إلى سائر المقومات التى تتجه نحو التكامل والاتزان .

٦ — التصنيف التكاملى للوقائع النفسية

يتبين لنا مما سبق أن التصنيف الحقيقى للوقائع النفسية لابد له من أن يسترشد بخصائص الحياة النفسية وأن يتبع فى سيره المراحل التى تجتازها هذه الحياة فى سعيها نحو تحقيق الغاية التى تنطوى عليها كل خطوة من خطواتها ، بحيث يصبح التصنيف صورة صادقة للمصنَّف ، يلخص فى حركته الصاعدة سير الحياة النفسية فى أثناء نموها وترقيها فى كنف الزمن الحى الذى يربط بين اللحظات المتعاقبة داخل نظام كلى موحَّد .

ويكون غرض علم النفس التكاملى أن يفسر لنا كيف يتم الترقى الذى يحوّل الفردية البيولوجية إلى شخصية متكاملة وأن يعطينا صورة صادقة لمراحل التكوين والنمو مع بيان شتى العوامل والشروط البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية.

يبدو لنا أن الطفل المولود حديثاً لا يختلف عن سائر الحيوانات ، وأنه لن يتجه نحو النموذج الإنسانى إلا بفضل تأثير المجتمع . الواقع أنه ليس فى مقدور المجتمع أن يخلق شيئاً ، فلا بد من أن تكون جميع الإمكانيات الإنسانية موجودة فى هـذا الكائن الذى يبدو لنا شبيه بسائر الحيوانات . ولكن يجب القول أيضاً أنه ليس فى مقدور هذه الإمكانيات أن تظهر وتنمو بدون تأثير المجتمع . فإذا كان المجتمع لا يخلق شيئاً ، فلا شىء ينمو ويكتمل بدونه . ولهذا السبب يجب أن يكون علم النفس علماً نفسياً اجتماعياً فى آن واحد . كما أنه لابد من أن يكون أيضاً بيولوجياً إذ لا يدرس علم النفس نفساً مجردة بل نفساً لها جسم أى الإنسان .

ويترتب على ذلك أن التصنيف الحقيقى للوقائع النفسية — وهو تصنيف تفسيرى للحياة النفسية لأنه يتتبع مراحل التكوين والنشـوء — سيشير بالضرورة إلى العوامل البيولوجية والاجتماعية التى تشترك فى توليد المراحل بعضها من بعض وإظهار الوظائف الجديدة وتنميتها وتفاعلها .

فلدينا من جهة العوامل النفسية والاجتماعية ، ومن جهة أخرى العوامل البيولوجية والنفسية . والقطبان الأولان يعيّنان من جهة طرفى الحركة التى ستظهر خلالها الوظائف النفسية الأساسية فى أثناء تحوّل الفردية البيولوجية بما تحمل فى طياتها من حوافز وميول إلى شخصية اجتماعية موحدة متكاملة شاعرة بذاتها وبقدرتها على العمل الحرّ .

ويعيّن القطبان الثانيان الطرفين اللذين ستظهر حول كل منهما الأبنية (structures) أو الأشكال التى ستتضح خلال عمل الوظائف فى أثناء عملية بناء الحياة النفسية وهذان الطرفان هما المجال الحركى من جهة والمجال الذهنى من جهة أخرى .

ولكل زوج من هذين الزوجين (فردية بيولوجية — شخصية اجتماعية أو

ذات شاعرة حرة) و (مجال حركى — مجال ذهنى) قانونان توجيهيان ، يعيّن كل منهما الاتجاه المؤدى إلى رقى الحياة النفسية وتكامل جميع مقوماتها .

القانون الأول : يتجه الترقى فى مجال الحوافز والميول من اللاشعور إلى الشعور .

القانون الثانى : يتجه الترقى فى مجال الشخصية من الأفعال الآلية إلى الأفعال الإرادية .

القانون الثالث : يتجه الترقى فى مجال النشاط الحركى من استخدام الأشياء إلى استخدام رموزها .

القانون الرابع : يتجه الترقى فى مجال النشاط الذهنى من الإحساس إلى التصور الذهنى (١)

* * *

يمكن الكشف عن أهم المراحل التى تقطعها الحياة النفسية فى أثناء نموها بدراسة سلوك الطفل الحركى النفسى منذ الولادة حتى اكتساب اللغة وظهور القدرة على التصور الذهنى والتفكير .

يكون السلوك فى أول مظهره آلياً ، أى أنه يتم بتأثير المنبّه الخارجى مباشرة ، بشرط توافر الشروط الداخلية التى تهيىء جسم الطفل للقيام بالاستجابة التى يثيرها المؤثر الخارجى . وهو سلوك آلى أى غير مسبوق برويّة وتفكير ، كما أنه سلوك فطرى أى غير مكتسب ، ولكنه سلوك مكيَّف ، اى أنه يؤدى إلى إرضاء الحافز الداخلى كالجوع مثلا . ونظراً لأنه مكيف وملائم لا يصح أن نعتبره ميكانيكياً ، إذ أن الميكانيكية لا تتضمن بذاتها السعى نحو تحقيق غاية ما .

والتكيف الذى يبديه الفعل الآلى صورة من صور الذكاء ولهذا السبب يعتبر سلوكا نفسياً ضمنياً . ولا تتضح صفة « النفسية » فى السلوك الآلى إلا عند ما تكون

(١) لا يتسع المقام لتوضيح هذه القوانين ، ويمكن الرجوع إلى كتابنا « شفاء النفس » ص ١٢٥ — ١٢٨ دار المعارف للطباعة والنشر — ١٩٤٣ — آثرنا فى نص القانون الثانى أن نستبدل بالأفعال المنعكسة . كما جاء ذكرها فى كتاب شفاء النفس ، الأفعال الآلية . والمقصود بالفعل الآلى ما لا يكون مسبوقاً برويّة وتفكير .

الاستجابة المنبه ، لا من حيث هو مؤثر فيزيقى فحسب ، بل من حيث هو دلالة أو إشارة أو رمز وستظهر القدرة على إدراك الدلالة بفضل ظاهرة جديدة هى الانفعال .

ولا نقصد بالانفعال مجرد التأثر الوجدانى باللذة أو الألم ، بل تغير فجائى يعترى السلوك الهادىء المنظم المتواصل . والانفعال ينتج دائماً عن عجز السلوك الآلى عن إرضاء الحافز ، أو بعبارة أعم عن التفاوت بين قدرة الآليات وصعوبة المشكلة أو بعبارة أخرى أن الانفعال ينطوى دائماً على معنى الخيبة والفشل .

وللانفعال شكلان أو بعبارة أدق وظيفتان . وظيفة أولية فطرية ووظيفة ثانوية مكتسبة . فالانفعال فى شكله الأولى البدائى لا يزال سلوكا آلياً غير أنه سلوك مضطرب غير مكيَّف ؛ هو سلوك محصور فى جسم المولود الحديث ، هو ارتداد الاستجابة إلى الجسم بعد انفصالها عن موضوعها الخارجى . فالانفعال فى شكله الأول هو مجرد الأوضاع التى تتخذها أجزاء الجسم مع ما يصحبها من تغيرات فسيولوجية مختلفة ، أى أن الوظيفة الأولية للانفعال هى تشكيل جسم الطفل بشكل معين . ولهذا الشكل الخاص — انقباض العضلات ، تغيير ملامح الوجه ، احتقان الوجه بالدم ، الصراخ الخ . . . — تأثير فى الآخرين يؤدى بهم إلى القيام بسلوك معين نحو الطفل . غير أن هذا التأثير غير مقصود ، أى أن الحركات لاتزال مجرد حركات ثم لا تلبث هذه الحركات أن تتحول إلى تعبيرات تحت تأثير البيئة الاجتماعية ومختلف أساليب التربية ، أى أن الطفل سيتعلم أن يستخدم هذه الحركات كأداة تعبيرية للتأثير فيمن يحيط به من أشخاص ، أو بعبارة أخرى سيتعلم الطفل أن ينتظر أثر هذه الحركات وأن يتوقع الاستجابات التى سيقوم بها الآخرون لمعالجة الموقف بحيث يزول ما أثار الانفعال . وتلك هى الوظيفة الثانوية للانفعال التى ترمى إلى التأثير فى العالم الخارجى عن طريق التعبير الانفعالى .

تلك هى المرحلة الثانية فى نمو الحياة النفسية ، وسيؤدى التعبير الانفعالى إلى المرحلة الثالثة أو إلى الوظيفة الثالثة وهى التصور الذهنى والتفكير — وفى هذه

المرحلة تظهر قدرة الطفل على استخدام الرموز بدلاً من استخدام الأشياء نفسها ، وعلى استخدام المعانى لوضع خطة عمله فى المجال الذهنى قبل تنفيذها فى المجال الحركى .

سبق أن عرفنا السلوك الآلى بأنه غير مسبوق برو ية وتفكير . فيوجد إذن نوع من التضاد بين الآلية والتفكير . ويوجد أيضاً تضاد بين الآلية والانفعال إذ أن الانفعال هو اضطراب الآلية ، كما أنه يوجد تضاد بين الانفعال والتفكير إذ أن الاضطراب الانفعالى يعوق التفكير ، كما أن تصور الحالة الانفعالية والتفكير فيها يؤديان إلى إخماد الانفعال .

ولكن يوجد مايربط بين هذه المراحل الثلاث على الرغم مما يوجد بينها من تضاد. فقد ذكرنا أن الانفعال فى شكله الأولى ضرب من الآلية ، ولكنها آلية غير ناجحة. وبينا من جهة أخرى كيف أن الانفعال فى شكله الثانوى وبفضل وظيفته التعبيرية يمهد الطريق إلى التصور الذهنى . ونلمس هنا كيف يمكن تطبيق الوظيفة الدائرية اللولبية على هذه الحركة التى تبدأ عند الآلية وتنتهى عند التصور الذهنى ، مع العلم بأن الآلية تظل الأساس الأولى الذى ستقام عليه الحياة النفسية كلها ، أى أن الفطرى هو الأساس الأول لكل ما هو مكتسب .

و بناء على ما سبق تكون الوظائف النفسية الأساسية هى تبعاً لترتيب ظهورها فى الزمان : الآلية والانفعال والتصور الذهنى .

أما الذاكرة التى يعتبرها بعضهم[1] مستوى خاصاً من مستويات نمو الحياة

---

(١) فى كتاب حديث فى علم النفس لموريس برادين ظهر عام ١٩٤٣ (Maurice Pradines : Traité de Psychologie générale, T.I, Paris 1943) يرى المؤلف أن لنمو العقل (esprit) ثلاثة مستويات : مستوى الآلية (automatisme) ومستوى الذاكرة (mémoire) ثم مستوى العقل أوالفكر (l'esprit ou la pensée) وهى مستويات متفاوتة من حيث قيمة المعرفة . وأوجه الاعتراض على هذا التقسيم هى الآتية : استعمال لفظ esprit بمعناه العام وهو الحياة النفسية عامة ، ثم استعماله بمعنى العقل الذى يجرد ويحكم ويستدل بناء على مبادئ عقلية كلية . لا يوجد فاصل مميز بين الآلية والذاكرة إذ أن الأفعال التعودية التى تتطلب الذاكرة هى نوع من الأفعال الآلية ، وفعلا يتحدث المؤلف عن العادة فى باب الآلية . ثم أن لفظ فكر pensée غير محدد فى دلالته ولا يوجد فاصل مميز بينه وبين الذاكرة لأن الذاكرة ليست مجرد إعادة الماضى كما هو بل تقتضى اختياراً ونشاطا فكرياً . وإذا سلمنا بوجود تقابل بين الذاكرة وبين الفكر بأن الأول أساس المعرفة الحسية والثانى أساس

النفسية ، فهى فى الواقع وظيفه عامة تعمل فى كل مظهر من مظاهر الحياة . وهى فى نظر علم النفس التكاملى عامل التكامل النفسى من حيث هى تمثيل الزمن كخبرة حية ، وهى التى تربط بين جميع المراحل كما تربط بين لحظات الزمن ، هى عامل التكامل لأنها عامل ثبات ، كما أن الجهاز العصبى هو عامل التكامل البيولوجى واللغة عامل التكامل الاجتماعى .

والآن يمكننا أن نرى كيف ستترتب جميع الوقائع النفسية وفقاً لهذا النظام الطبيعى الذى يتمثل فى المراحل الثلاث الأساسية . وسنبين فيما يلى ترتيب هذه الوقائع وتسلسلها بادئين عند الفردية البيولوجية للوصول إلى غاية الحركة التكاملية كما تتمثل فى الشخصية .

وكما تحمل الجرثومة الملقحة فى طيات دقائقها عوامل الوراثة البيولوجية الخفية — وراثة الأجيال السابقة بل وراثة الجنس بأسره — تلك العوامل التى ستشرف على نمو الكائن الحى فى اتجاه معين حتى يحقق فى فرده كمال جنسه ، كذلك يحمل الإنسان فى ثنايا طبيعته عوامل الوراثة السيكلوجية التى لا تقل خفاء عن الأولى بل تفوقها غموضاً . فالإنسان فى مبدئه وفى جبلته الأولى مجموعة من العوامل الديناميكية التى تنشأ بفضلها الحركة وتتوجه ، وتسمى هذه العوامل ، اصطلاحاً فى علم النفس ، بالغرائز والميول والنزعات .

و يظل دافع السلوك فى حالة كمون إن لم يثرها منبه داخلى هو فى العادة فقدان التوازن العضوى الداخلى ، كما أنه يظل ناقص التنفيذ إن لم يغذ حركته و يوجهها منبه خارجى .

فإذا انتقل الفعل النفسانى من عالم الكمون إلى عالم التنفيذ بفضل التنبيهات الداخلية والخارجية كانت الاستجابة لإرضاء الدافع الداخلى والمطالب الخارجية استجابة مباشرة أو غير مباشرة .

المعرفة العقلية القائمة على مبادئ العقل (raison) فهذا التقابل معدوم بين الآلية والذاكرة . وأخيراً يلاحظ أن هذا التقسيم يغفل الناحية الوجدانيـة للحياة النفسية فضلا عن كونه استاتيكيا جامداً لا يشير إلى الحركة التى تسير بنمو الحياة النفسـية من بدايتها إلى غايتها وهذا على الرغم مما قرره المؤلف فى مقدمة كتابه عن أهمية المنهج التكوينى (génétique) .

والاستجابة المباشرة تكون فى مظاهرها البسيطة إقدام أو إحجام . ولسلوك الإقدام بطانة وجدانية هى الإحساس بالسار ، ولسلوك الإحجام بطانة وجدانية مضادة للأولى فى مضمونها الكيفى هى الإحساس بالمكدر .

فإذا كان ما لدى الفرد من استعدادات ومعلومات كافياً لمواجهة الموقف بنجاح ، أى إذا كانت الآلية كاملة كانت الاستجابة مباشرة . وهى تتخذ أشكالاً مختلفة حسب طبيعة المنبه إذا كان بسيطاً أو مركباً ، موضعياً أو شاملاً . وهذه الأشكال هى الأفعال المنعكسة والانتحاءات والأفعال الغريزية والأفعال التعوّدية[1] .

أما إذا كانت الآلية ناقصة غير صالحة لمواجهة الموقف لأسباب طارئة أو بتأثير التعب اضطرب السلوك وانفجر الانفعال .

غير أن الانفعال وإن كان فى بعض الظروف منشطاً فإنه استجابة فاشلة لا تلائم غرض النشاط ولا تحقق نهايته . هو استجابة استبدالية ، مستواها دون مستوى الأفعال الناجحة التوافقية .

وفى هذه الحالة ترجأ الاستجابة حتى يستعد المرء من جديد لمواجهة الموقف وحتى يكتسب آليات جديدة عن طريق التعلم ، وهذه الآليات الجديدة عبارة عن إعادة تنظيم الآليات السابقة بعد إتمامها . وعمليات الاكتساب والتعلم طويلة شاقة تمر بعدة مراحل . وأول مرحلة من المراحل هى سلوك الانتظار والتوقع والبحث ولهذا السلوك سداته الوجدانية الخاصة هى الإحساس بالطريف والمرغّب . وهذا الإحساس بالرغم من بساطته أكثر تعقداً من الإحساس بالسار أو الإحساس بالمكدر وهو من قبيل ما يسمى بالعواطف .

وللعواطف على العموم وظيفة هامة تشبه وظيفة الدوافع الفطرية : هى تغذية السلوك وتعديله وتوجيهه ، هذا إلى أن العواطف نفسها تقوى وتتشعب بتفاعلها مع السلوك .

أما عملية اكتساب المعلومات وتنظيمها واستخدامها فى المجال الذهنى والمجال

(١) أنظر فى باب التعريفات فى هذا العدد تعريف الفعل المنعكس والانتحاء .

الحركى أى فى مجال الفكر ومجال العمل المسبوق بالروية ، فتستلزم نشاط بعض الوظائف السيكلوجية الهامة مثل الإدراك والذاكرة والتعلم .

وللانتباه أو للنشاط الذهنى بوجه عام مستويات تختلف قوة وتوتراً وتنظيماً . وينجم عن هذه الاختلافات نوعان من الاستجابات : الاستجابات التى تنفذ فى عالم الوهم والخيال والاستجابات التى تنفذ فى عالم الواقع والعمل ، فالأولى استبدالية والثانية حقيقية . وتكون كل منهما إما ذهنية أو حركية . فمن الاستجابات الاستبداليـة الذهنية أحلام اليقظة ، وأحلام النوم والأمراض النفسية[1] أما اللعب فهو ضرب من ضروب الاستجابات الاستبدالية الحركية . وقد يكون الفن لوناً من ألوان اللعب .

ومن الاستجابات الحقيقية الذهنية نذكر الاستدلال والتفكير الإبداعى . أما الاستجابات الحقيقية الحركية ، فهى إما مصحوبة بتفكير ضمنى وهو الذكاء العملى أو مصحوبة بتفكير صريح مشعور به ، وهو التعبير اللغوى وأخيراً الأفعال الموجهة المقصودة أى الأفعال الإرادية .

بهذا رأينا كيف تنوعت المسالك التى اتخذتها الدوافع للظهور والنشاط والتنفيذ فاستعرضنا مراحل الفعل النفسانى ، وأشرنا إلى الوظائف الهـامة التى تحقق نمو هذه المراحل وتصل بينها . على أنه قد بقى أن نشير إلى المرحلة الأخيرة التى سوف تتحقق خلالهـا الوحدة التى اضطررنا إلى تحليلها . وهذه الوحدة الجديدة التى تفوق فى ثرائها وغزارة موادها وتكامل تنظيمها الوحدة الفطرية الأولى هى الشخصية بشتى نواحيها الفردية والاجتماعية .

وقد أجملنا فى الجدول الآتى مراحل رقى الحياة النفسية مع الإشارة إلى الاتجاهات العامة الأربعة .

---

(١) هذا التصنيف بفضل اعتماده على الحركة الطبيعية التى يتبعها الترقى فى مراتبه الثلاث (البيولوجية والنفسية والاجتماعية) وبفضل توضيحه القوانين التوجيهية التى يسير الترقى بمقتضاها يلقى ضوء على تصنيف انحرافات السلوك والأمراض النفسية والعقليةوتفسير نشوئها وتطوّرها الشاذ. (أنظر فى هذا العدد مقال الدكتور صبرى جرجس باللغة الإنجليزية عن الشخصية السيكوپاتية) .

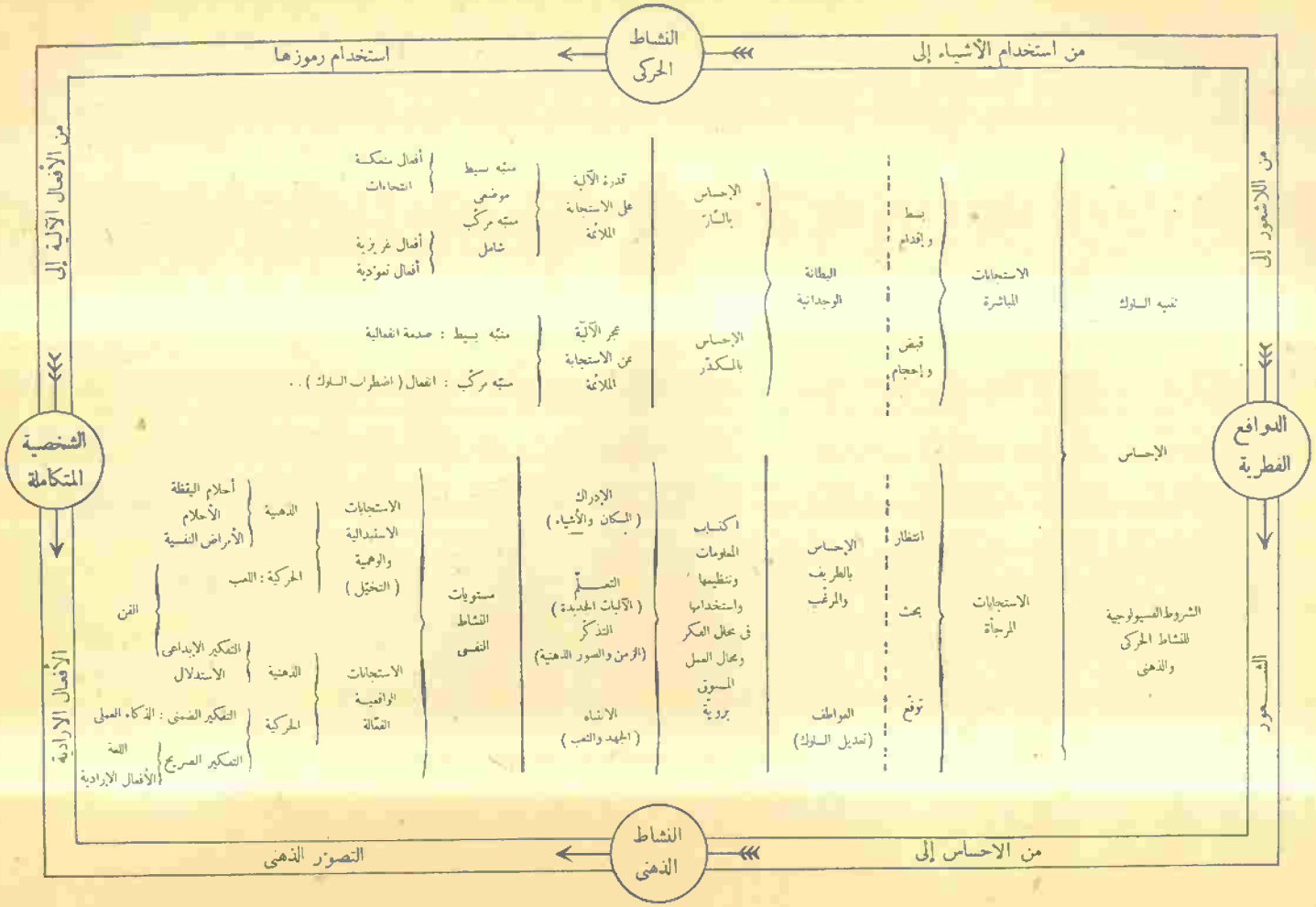
النشاط الحركي
من استخدام الأشياء إلى
استخدام رموزها
من الأفعال الآلية إلى
الأفعال الإرادية
الشخصية المتكاملة
الدوافع الفطرية
من اللاشعور إلى
الشعور
النشاط الذهني
من الاحساس إلى
التصور الذهني
تنبيه السلوك
الشروط الفسيولوجية للنشاط الحركي والذهني
الإحساس
الاستجابات المباشرة
بسط وإقدام
قبض وإحجام
الاستجابات المرجأة
انتظار
بحث
توقع
البطانة الوجدانية
الإحساس بالسرور
الإحساس بالكدر
الإحساس بالطريف والمرغب
العواطف (تعديل السلوك)
اكتساب المعلومات وتنظيمها واستخدامها في مجال الفكر ومجال العمل بروية
الإدراك (المكان والأشياء)
التعلم (الآليات الجديدة)
التذكر (الزمن والصور الذهنية)
الانشاء (الجهد والتعب)
مستويات النشاط النفسي
قدرة الآلية على الاستجابة الملائمة
منبه بسيط موضعي
منبه مركب شامل
أفعال منعكسة
اتجاهات
أفعال غريزية
أفعال تموذجية
عجز الآلية عن الاستجابة الملائمة
منبه بسيط : صدمة انفعالية
منبه مركب : انفعال (اضطراب السلوك)..
الاستجابات الاستبدالية والوهمية (التخيل)
الذهنية
أحلام اليقظة
الأحلام
الأمراض النفسية
الحركية : اللعب
الفن
الاستجابات الواقعية الفعالة
الذهنية
التفكير الابداعي
الاستدلال
الحركية
التفكير الضمني : الذكاء العملي
التفكير الصريح
اللغة
الأفعال الإرادية

Résumé.

LA METHODE D'INTEGRATION ET LA CLASSIFICATION DES FAITS PSYCHOLOGIQUES.

Par

Youssef Mourad

Secrétaire Général de la Société Egyptienne Psychologie Intégrative.

Les principaux points traités dans cet article sont les suivants : l'explication scientifiquer et la classification ; la classification et le langage ; la classification traditionnelle des phénomènes psychologiques ; critique de cette classification telle qu'elle est suivie particulièrement dans les manuels de psychologie écrits en arabe; la méthode d'intégration et enfin la classification des faits psychologiques par voie d'intégration.

Le caractère statique, fragmentaire et artificiel de la classification traditionnelle en affectivité, cognition, activité est dû à l'insuffisance de la méthode d'introspection. Cette méthode n'atteint que certains aspects du vécu qu'elle décompose en états et en moments ; elle reste incapable de retrouver et de saisir le mouvement qui sous-tend ces états et ces moments en en expliquant la génération, le déroulement, ainsi que leurs mutuelles dépendances. D'où nécessité de rectitier et de compléter les données de l'introspection par la méthode génétique. Mais le passé et le présent, quand il s'agit du développement bio-psycho-social de l'homme, ne suffisent pas pour en donner une explication intégrale : il faut aussi introduire dans l'explication la notion de l'orientation de la croissance et du développement par les fins mêmes auxquelles ils tendent, et ce par l'analyse intégrale de la forme bio-psychique qui constitue le type humain.

La méthode d'intégration, au service d'une psychologie intégrale, ou de préference «intégrative», considère l'étude de la personnalité comme le sujet central des études psychologiques, et son intégration par l'assimilation du temps vécu, comme l'aboutissement normal du développement bio-psycho-social de l'individu humain.

Le développement ne se fait pas par voie linéaire, mais *cyclo-hélicoïdale*, c'est-á-dire avec des régressions partielles, au cours desquelles un processus de maturation prépare le nouveau progrès et fait émerger une nouvelle étape plus différenciée. Chaque étape n'est pas considérée seulement comme le fondement de l'étape suivante, mais comme son signe. Au cours du développement qui mène de l'automatisme à l'émotion sous ses deux formes, proprioplastique et extéroplastique, et de cette dernière à la représentation mentale, se produit une intégration de plus en plus complète des diverses fonctions, et où les oppositions entre certaines fonctions, qui un moment paraissaient radicales, se trouvent elles-mêmes réduites et intégrées au service d'une fonction supérieure.

Quatre grandes lois de direction résument les divers processus qui vont concouramment contribuer à transformer l'individualité biologique de l'homme en une porsonnalité psycho-sociale intégrée.

Sur le plan de l'individualité biologique, celui des tendances, le développement va de l'inconscient au conscient. Sur celui de la personnalité en voie d'intégration, des actes automatiques aux actes volontaires. Sur celui du comportement moteur, de l'utilisation des choses à l'utilisation de leurs symboles. Et enfin sur le plan de l'activité mentale, de la sensation à l'idéation (image et concept).

Dans ce cadre et en tenant compte de l'orientation du développement on peut procéder à une classification *naturelle* des faits psychologiques, classification qui reproduit à la fois les étapes du développement psychique et l'histoire de l'acte psychologique complet.

Le schéma suivant donne une idée succinte de la classification proposée : tendances innées et leur activation ; l'excitation sensorielle ; la réponse immédiate et sa «doublure» affective : adéquation de *l'automatisme* ; son inadéquation d'où apparition de l'émotion ; d'où nécessité de différer la réponse ; la recherche, *l'émotion* et l'acquisition en vue de restructurer les poseibités de *pensée* et d'action ; les niveaux de l'activité, les réponses - substituts (imagination et jeu), les réponses effectives. Les deux plans moteur et mental sont constamment considérés. L'intégration dans sa forme la plus haute est réalisée dans l'acte volontaire.